بسم الله الرحمن الرحيم

الربيع بن يونس

للأستاذ محمد أحمد برانق
المدرس بالإبراهيمية

جوهرة ثمينة فريدة، هي عقد أصابه أناس في بعض بلاد العجم لبعض ملوكهم، أو هي نخلة كانت لكسرى مصنوعة من الذهب عثاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر وأخضر — حمل الجوهرة من أصابها إلى مصعب ابن الزبير، والي العراق، فاشتراها ثم سأل من حوله: إلى من أدفعها؟ وكان طبيعيا أن يقترحوا عليه أن يهديها إلى أهله ونسائه، ولكنه لا يرضى بذلك ويؤثر أن يقدمها هدية إلى رجل أولاه جميلا، وله عليه يد. ذلك الرجل هو عبدالله بن أبي فروة، جد الربيع بن يونس، وكانت تلك الهدية سبب غناه وغنى عقبه من بعده. واليد التي اعترف بها مصعب لعبدالله بن أبي فروة هي أنهما نشأ اكغصنين في تبعة واحدة، وكانا خليلين لا يكادان يفترقان، فإذا اكتسى أحدهما كسوة، اكتسى الآخر مثلها، فاكتسى عبدالله يوما كسوة ولم يجد مصعب ما يكتسي به مثلها، لأنه كان قليل المال، فذكر ذلك عبدالله لأبيه، فكساه مثل حلته، وظل مصعب يذكر تلك اليد حتى كبر، وكانت له مشاركة في السياسة والتدبير، ثم ولي العراق، فلما أصاب تلك الجوهرة قدمها إلى صديقه وكاتبه عبدالله بن أبي فروة، فسر بها كثيرا، فقال له مصعب: والله لأنا بالحلة يوم كسوتنيها — أشد سرورا منك بهذا العقد الآن.

إذن هى حلة بدريهمات يشتريها أبو فروة لصديق ابنه ،تكون سببا فى جلب خير كثير ومال وغنى يرثه أبناؤه من بعده ، إلا أن أبا فروة صاحب اليد ووالد عبدالله الذى أهديت اليه الجوهرة هو أيضا والد محمد جد الربيع بن يونس ، ولكن الغنى كان فى عبدالله،وعقبه ، ولم ينل منه محمد شيئا ،فلم يصب أبناؤه منه شيئا .

وأما يونس بن محمد ، فإنه كان « شاريا شاطرا بالمدينة ، فعلق أمة لقوم بالمدينة ، فوقع عليها ، فجاءت بالربيع واستعبد ، ولم يكن ليونس مال ، فيبتاعه ، فابتاعه زياد بن عبدالله الحارثى خال أبى العباس ، وأهداه إليه ، فخدمه وخف على قلبه ، ثم خدم أبا جعفر بعده فخص به » .

إذن : الربيع بن أمة ، ولد عبدا ، ولم يستطع أبوه يونس أن يشتريه من مولى الأمة ، فاشتراه زياد كما يشترى سلعة من السوق ثم قدمه هدية إلى السفاح فيخدمه ، ثم يخدم المنصور من بعده حتى يغلب عليه لخفة فيه ، ورقة طبع ، وحدة ذكاء ، وحسن تأت لما يعرض له من الأمور . فشتان بين مبدئه ومنتهاه .

وكان المنصور يحب الربيع ، ويقربه إليه ، ويخصه بمودته ، ويستشيره فى كثير من أموره ، وأحسن القيام بالحجابة له والعرض عليه وأخلص هو للمنصور ، وظهر إخلاصه فى مناصحته له واختصاصه به ، وظل على ذلك عنده حتى غضب على أبى أيوب الموريانى ونكبه ، ثم فكر فيمن يلى أمر الوزارة له ، فلم يجد غير الربيع ، فأمره أن يجلس فى بيته حتى يأتيه رسوله ، فاضطربت نفس الربيع ، وغلبت عليه الوساوس ، واغتم كثيرا لأنه قد يصيبه من وراء ذلك شر ، وهذا شأن القريب من صاحب السلطان — إن

اطمأن يوما اضطرب أياما . ولما صار إليه الرسول قدم إليه حلة الوزارة ، وأمره أن يلبسها ، ويركب ويذهب إلى دار الخليفة ، فلما ذهب إليها وجد الفرّاش طرح له مرفقة تحت البساط تقصيرا به عن منزلة المهدى وعيسى بن على ، لأنه كان يطرح لهما مرفقتين ظاهرتين ؛ وما كاد يمثل بين يدى الخليفة حتى ولاه وزارته والعرض عليه ، وولى ابنه الفضل الحجابة .

أما الربيع فإنه منذ تولى الوزارة والعرض ، حسن طبعه ، ودمث خلقه ، ولان ملمسه ، ورق مظهره ، وطاب مخبره ، وعرف المنصور ذلك فيه ، فكان إذا أراد أن يعطف على إنسان ، ويوليه جميلا ، ويقدم إليه يدا — أحاله على الربيع لميله إلى ذلك فى تصرفه .

وكان ذلك المذهب فى سياسة الدولة وتدبير أمورها ؛ يحبب الناس فيه ، ويجعلهم يؤثرون الخير به على الشر به ، ويسل سخائم صدورهم ، ويمسح حفائظها ، ويصير له فى نفوسهم مكانا عليا . وكان يكثر من الشفاعة للمذنبين فيعفو المنصور عنهم ، فلا يكفرون بنعمة العفو ، ولكنها قلائد فى أعناقهم لا ينزعها حقد قديم ، أو سخيمة موروثة ، أو ثأر مبيت ؛ فكان بذلك يريح نفسه ويريح مولاه وصاحب نعمته : الخليفة المنصور ألا ترى أن بعض أهل فلسطين وثب على عاملها ، واستغوى بعض الناس ، فكادوا يشعلون نار الفتنة ، وعاثوا فى البلاد فسادا فلما علم المنصور بذلك كتب إلى عامله « دمك مرتهن إن لم توجه رأس تلك العصبة إلينا » فصمد العامل لهم ، وضرب على أيديهم لأن فى ذلك حقن دمه . وضمان بقائه فى عمله ، ثم قبض على رأس العصبة المفتونة ، ووجه إلى المنصور ، فلما مثل بين يديه قال له : « أأنت المتوثب على عامل أمير المؤمنين ؟! ، لأنثرن من لحمك أكثر مما يبقى على

عظمك » فقال له الرجل وكان شيخا بلغت به السن أقصاها :

أتروض عرسك بعد ما هرمت ومن العناء رياضة الهرم ؟!

وكان الرجل لضعفه وشيخوخته ، ينشد البيت بصوت متهدج خافت ضئيل متقطع النبرات ، يكثر من الترجيع والتأتأة وقتل الحروف ، فلم يتبين المنصور ماقال ، وكان الربيع شاهداً المجلس ، فالتفت إليه المنصور ، وسأله عما يقول الرجل ، فقال : هو يقول ياأمير المؤمنين :

العبد عبـــدكم والمـال مالـكم فهل عذابك عني اليوم مصروف؟

فإنه غلبت عليه خيريته ، وأنشد بيتا غير الذى أنشده الرجل ، فيه اعتذار واستعطاف ، ألان قلب المنصور ، وخفف سورته ، وأزال غضبه ، فعفا عن الرجل ، وخلى سبيله ، وأمر الربيع أن يحتفظ به ، ويحسن إليه .

وظل الربيع وزيرا للمنصور حتى مات المنصور سنة ١٥٩هـ ، فأخذ البيعة للمهدى .

فلما تولى المهدي الخلافة ، ولى أبا عبيد الله وزارته ، وكان أبو عبيد الله قبل ذلك صديقا حميما للربيع ، وكان الربيع يحسن إلى أبى عبيد الله ويرفع موضعه عند المنصور وينا صحه ويكاتبه بما يحتاج إليه ، وينبهه إلى ما يصلحه ، ويكف عنه من يريد التشنيع عليه ، والنيل منه ، والقدح فى محله ، أو ذكره بخلاف الجميل .

فعل ذلك الربيع أيام كان أبو عبيدالله غائبا مع المهدى بالرى ، والمهدى ولى العهد . فلما استوزر المهدى أبا عبيدالله ، تنكر هذا للربيع ، ونسى معروفه أو تناساه ، فحز ذلك فى نفس الربيع ، وآله ، وأقض مضجعه ، حتى لقد حدثه فى ذلك ابنه الفضل ، فعض على ناجذيه ، وهز كفيه ، وغلا دمه ، ولعنت

عيناه ؛ وبرقت ثناياه ، وتأوه وزفر ، وغار الدم من وجهه ، وقال قولة المغيظ المحنق : « والله الذى لاإله إلا هو لأخلقن جاهى ولأنفقن مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيدالله » . ثم جعل يضرب كفا على كف ، ويتقلب ظهرا لبطن ، ويضرب يمينا وشمالا فلا يجد مساغا . ولكنه فكر وأطال التفكير ، حتى اهتدى إلى رجل اسمه القشيرى ، كان أبو عبيدالله نال منه ، وأساء به ، ولم يعرف مكانه فحجبه . أراد أن يستعين بذلك الرجل فى النكاية بأبى عبيدالله والإيقاع به ، فاستحضره ، وذكر له ما كان من أبى عبيدالله معه ، وما ركبه به ، ثم سأله حيلة فيه إن كانت له حيلة ، ولكن القشيرى كان أعلم الناس بأبى عبيدالله ، وكان على مايبدو من قوله حازم الرأى ، صادق المشورة ، لم يندفع وراء هواه ، ولم يفتن باستشارة الربيع إياه ، فقال له متحدثا عن أبى عبيدالله : « ليس بجاهل فى صناعته ، وإنه لأحذق الناس ، وماهو بظنين فيما يتقلده ، لأنه أعف الناس حتى لو كانت بنات المهدى فى حجره لكان لهن مرضعا ، وليس بمتهم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك وليس بمتهم فى دينه ، لأن عقده عقد وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع لك فى ابنه » .

أعجب الربيع رأى القشيرى ، فلم يتعرض أولا لأبى عبيدالله نفسه ، لأنه فى حصن منيع من أخلاقه ، وأدبه ودينه ، وزهده وصلاحه وإخلاصه ، للخلافة إلا أنه حاول أن يأخذه من ناحية ابنه ، ولكن عليه أن يحسن الحيلة .

وإن رجلا كالربيع استطاع بحسن حيلته ، وحسن تأتيه للأمور ، أن يفسد مابين المنصور وبين وزيره أبى أيوب ، واستطاع أن يغير المنصور على وزيره ، حتى نكبه بالحبس ثم بالقتل — لايعز عليه أن يفسد مابين

أبي عبيد الله والمهدى . إلا أن الفرق كبير بين أبي أيوب وأبي عبيد الله ، فإن الأول كان سيء السيرة . ولم يكن مخلصا للخلافة ، فهو يرتشى ويسرق ، ويدس ويشى ويزور . وتحيط به حاشية من رجال السوء الذين لا يؤتمنون على سر ولا علن ، ولذلك قدم إلى الربيع الرمح الذى وجأه به عند المنصور أو هو الذى صنع ذلك السيف وشحذه ، وسلمه إلى الربيع فقدمه هذا إلى المنصور حيث طعن به صاحبه — فعل ذلك الربيع من غير عناء كثير ، أو التجاء إلى مداراة أو مداورة ، والتماس حيل ، وسفور تارة ، وتقنع مرة أخرى ، إلى غير ذلك من الأمور التى يلجأ اليها من يقدم على عظيم من الأمور . وأى شيء أعظم من محاولة تغيير سياسة دولة ، وتوجيهها وجهة جديدة — أما أبو عبيد الله ، فانه غير متهم فى دينه أو تصرفه أو بإخلاصه للخلافة أو كفايته ، ولكن المتهم فى دينه والمرمى بالزندقة : ابنه ، فلتكن نكبته من هذا الطريق لا غير ، لأن سلوك أى طريق آخر غير هذا لا يصل به الربيع إلى مايريد من الانتقام من أبي عبيد الله ، فماذا يصنع ؟

* * *

كثر المتزندقون فى أيام المهدى ، فجد فى طلبهم ، وقسا عليهم ، وغلظ فى أمرهم ، فلا يعرف فيهم لينا ولا هوادة ، وكان عبدالله بن أبي عبيد الله زنديقا قبض عليه فى مكة ، وحمل إلى المهدى ، فسأله : أزنديق أنت ؟ قال : نعم ، وهنا أتيحت الفرصة للربيع ، فلصق بالمهدى ، وتودد إليه ، واستغل غلظته على الزنادقة ، ولا سيما الذين يعترفون منهم بالزندقة ، فان هؤلاء ليس لهم عقوبة إلا تمكين السيوف من رقابهم ، ثم حزها ، وابن أبي عبيد الله قد اعترف بانه زنديق ؛ فجزاؤه القتل ، ولا حرج على المهدى فى ذلك . بدأ

الربيع يحفر فى قبر أبى عبيد الله ، فاقترح على المهدى أن يأمره بقتل ابنه بيده ، فسمع له المهدى ، وأمر أبا عبيد الله أن يضرب عنق ابنه الزنديق .

وهنا يؤلمك كل الألم أن يقف أبو عبيد الله هذا الموقف ، أيطيع خليفته ويذبح ابنه ، وحنان الأبوة يحول بينه وبين ذلك . فهو واقف بين عاملين قويين يتجاذبانه دفعا ومنعا ، فإخلاصه للخلافة يدفعه ، وحنانه يمنعه . ويقف الرجل بين هـــذا وذاك ، مرتعد الفريصة ، جزع القلب ، هالع الفؤاد ، دامع العـين .

ولـكن الرجل غلب عليه إخلاصه لخليفته ، وتمكنه من دينه ، وكأن زندقة ابنه هونت عليه أن يفعل ما أمر ، فتنحى بابنه ، وقبض على السيف بيديه ، ولما هم أن يضرب عنقه ، خانته قوته ، فزادت رعدته ، وجمد دمه ، ولم يقو على رفع السيف ، فكيف به يضربه ؟ !!! . كأنى به وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، ودارتا حوله ، فوجدهم يرقبونه من كثب ، فرفع وجهه إلى السماء ، وقال : يارباه ـ قوِّ قلبى ، وارحم ضعفى ، وألهب فىَّ نار الإيمان وأشعل مصابيح اليقين ، فإما ذبحته ، وإما رحمتنى ورحمته . يارباه ـ أنت أرحم بابنى منى ، وأشفق على من نفسى ، فهيىء لى من أمرى رشدا . يارباه ـ إنى أستلهمك الصبر على البلاء ، وأسألك النجاة من كيد الأعداء .

موقف يذيب القلوب ، ويصدع الأكباد ، ويشعل الشيب فى الرءوس!! موقف تضطرب له الأنفاس ، وتقشعر الأبدان ، ويشيب من هوله الولدان!! موقف ألان قلب العباس بن محمد ، فقال : يا أمير المؤمنين ـ شيخ كبير وله حرمة ، ويكفيك غيره ما أردته منه ، وسمعوا الشيخ يقول لابنه فى صوت تقطعه الزفرات : مابهذا أدبتك ، ولقد علمتك كتاب الله عزوجل .

أنفذ المهدى الشيخ واستدعاه ، ثم وكل آخر بابنه ليقتله ، وكأن الابن قد أثر فيه موقف أبيه ، وتأنيبه له ، أو أنه رأى السيف مصلتا على رأسه فنادى بالتوبة ، فلم يسمع له المهدى ، وكان قد سمع من غيره ، وتغافل عنه ، فلما قيل له فى ذلك ، أقبل عليه ، وقال له : « والله ما الله أردت بذلك انزعوا عمامته ، وجأوا فى عنقه ، فما زال يدفع ويوجأ فى عنقه حتى أخرج » . ثم مضى إليه من وكل به ، فأطار عنقه ثم دفن ولم يستقبل به القبلة .

نال الربيع بذلك من أبى عبيد الله ، ولكنه لم يشف نفسه ، ولم يبرد صدره ، ولم تسكن هائجته ، فهو لا يتم له ذلك إلا إذا رأى أبا عبيدالله منكوبا فى عمله وفى نفسه ، ولذلك أعمل فكره ، فهداه شيطانه إلى أن يوعز إلى بعض خدم المهدى أنه إذا دخل أبو عبيد الله على الخليفة قبض على سيفه ومشى بجانبه ، محافظة على حياة الخليفة منه ، فنفذ الخادم ما أراد الربيع ، فهذا أبو عبيد الله قادم إلى الخليفة ، وهذا هو الخادم يصحبه ويمشى إلى جانبه ، ويقبض على سيفه ، فأنكر أمير المؤمنين ذلك على الخادم ، ولكن الخادم يحفظ ما لقنه الربيع من الجواب ، فيقول : « يا أمير المؤمنين قتلت ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ، ومعه سيفه اليوم ؟ » فرأى المهدى فى كلام الخادم كلام عاقل ، ووجد الكلام فى قلبه موضعاً كن فيه ، فأوحش المهدى من أبى عبيدالله ، ولم يخسر الربيع شيئا غير ثلاثة آلاف دينار قدمها أجراً للخادم .

* * *

وكان من حظ الربيع أن يعقوب بن داود اتصل بالمهدى فى هذه الأثناء ورفع إليه نصائحه ، وتقرب إليه . فتثاقل أبو عبيد الله ، وتقلل وأدل ، ولا سيما أن ما فعله به فى حادث ابنه جعله يستوحش منه . واتصل الربيع بيعقوب

ابن داود، وتمالأ الرجلان على أبي عبيدالله فكانت مكانة يعقوب تزيد، ومكانة أبي عبيد الله تنقص حتى تولى يعقوب الوزارة مكانه سنة ١٦٣ هـ. وقصره على ديوان الرسائل ثم عزله وصرفه عن ديوان الرسائل أيضا سنة ١٦٨ هـ وقلده الربيع ويجوز أن يكون ذلك بتدبيره هو و يعقوب.

* * *

ولما مات المهدى أخذ الربيع البيعة للهادى ببغداد قبل وروده إليها، فلما دخل الهادى بغداد قلد الربيع وزارته وتدبير أموره، ثم لم يلبث أن صرفه عنها وخصه بديوان الأزمة، ولم يزل مقرا عليه إلى أن مات سنة ١٦٩ هـ وسنه إذ ذاك ٥٨ سنة وصلى عليه الرشيد وهو ولى عهد.

وكان له مع الخلفاء مسامرات، ومع الأدباء مناظرات، ولذوى الحاجات شفاعات — غصت بأخبارها كلها بطون كتب الأدب.

محمد أحمد برانق